# <u>الحيّة ذات الرأسين</u>

**بقلم أ.د. يحيى شامي**

إن أنسى فما أنسى ذلك اليوم الذي رحت أقرأ فيه على مسامع تلاميذي الأعزاء الثانويين نص(الحيّة ذات الرأسين)، وهو نصٌ مأخوذ من كتاب الحيوان، لمؤلفه الذائع الصيت ابي عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، فما أن فرغت من قراءة هذا النص ومن شرح مفرداته، وتبيان مبناه ومعناه ومغزاه، وكيف أن الجاحظ لم يأخذ بقول أرسطو الذي زعم أن ثمة حيّة ظهرت في زمانه ولها رأسان اثنان، وكيف إنّ الجاحظ سفّه رواية الأعرابي الذي زعم بدوره أنه شاهد تلكم الحيّة ذات الرأسين.

أقول ما أن فرغت من قراءة ذلك النص الذي ترشح منه نزعة الجاحظ الساخرة، والأخرى العقلية المتمثلة باعتماد الشكّ كمقدمة لليقين، حتى ثارت في وجهي ثائرة التلاميذ الذين انقسموا فريقين اثنين ما بين مؤيّد متعصّب لصحة ما ذهب اليه الجاحظ، وآخر أخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن الأثنين معاً، داحضاً قول الجاحظ، وقد مثّل هذا الفريق الأخير أحدهم الذي وقف خطيباً موجهاً الكلام لجماعة الفريق الأول بالقول:

ماذا تقولون، يا زملاء، والى أين أنتم ذاهبون ، وأية فرية على الحقيقة تفترون، وما أدراكم، فلعلّ ذلكم الأعرابي الذي هو أدرى الناس بشعاب ودوابٍ وهوام وزواحف باديته النائية الشاسعة الأطراف، كان صادقاً كلّ الصدق لمّا أن رأى تلكم الحيّة ذات الرأسين، وهذا ما كان ذهب اليه من قبله أستاذ الفلسفة الأول أرسطوطاليس، وهو العالم بالطبيعة وبالمنطق وبالحيوان، وصاحب الكتاب الذي عوّل عليه الجاحظ كثيراً، متخذاً منه مصدراً أول لكتابه الموسوم بالحيوان .

- النص كما ورد في كتاب الحيوان :

صفحة من كتاب ( الحيوان ) للجاحظ

" وقد زعم صاحب المنطق أنه ظهرت حيّة ولها رأسان، فسألت أعرابياً عن ذلك، فزعم أنّ ذلك حقٌّ، فقلت له: من أي جهة ألرأسين تسعى؟ ومن أيهما تأكل وتعضّ؟ فقال: أما السعي فلا تسعى، ولكنها تسعى الى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمال ، وأما الأكل فإنها تتعشى بفم وتتغدى بفم، وأما العضّ فإنها تعضّ برأسيها، فإذا به أكذب البريّة ."

وعدّوا عن هذا، يا زملاء، أليست الغاية الأساس من وراء تأليف الجاحظ لكتابه الحيوان، وهذا ما كان بيّنه لنا أستاذنا الفاضل في مستهل الدرس، إنما هي غاية دينية بحتة ترمي الى إظهار عظمة الخالق وقدرته المتمثلة بعجيب صنع ما خلق وما ذرأ من إنسان يمشي على رجليه، أو حيوان يمشي على أربع، وثالث يمشي على بطنه، وإنّ من هذا الصنف الأخير الزواحف والحيّات التي منها تلكم الحيّة ذات الرأسين .

ثمّ، أما تناهى الى سمعك– وهنا توجّه بالكلام إليّ– والى أسماعكم/ يا زملاء، خبر ما تناقله الإعلام أخيراً عن تلكم المرأة التي وضعت طفلاً ذا رأسين، وأخرى وضعت طفلين اثنين ذوي جسدين اثنين متلاصقين. سياميّين، ولهما رأس مشترك واحد، فلمَ لا تكون تلكم الحيّة ، حيّة الجاحظ التي تحدّث عنها أرسطو من قبل، وشاهدها الأعرابي منْ بعدُ، آية من آيات الله، وما أكثر آياته في الأرض وفي السماء...؟

إلى هنا، وانقطع هذا التلميذ الذكيّ الجسور عن مواصلة الكلام الذي كان له وقع الصاعقة على الجميع، وذلك لمّا أن قُرع الجرس مؤذناً بإنتهاء الحصّة والوقت المقرّر للدرس، ولا أكتمكم سرّاً أني،أنا الأستاذ، وقفت موقف المتحيّر، فلم أحرِ جواباً وإن كنت في قرارة نفسي ميّالاً الى تصديق ما ذهب اليه الجاحظ لا الى ما كان زعمه أرسطو، صاحب المنطق، وما كان قد إدّعاه ذلك الأعرابي ابن البادية المسكين ..

وتدور الأيام دورتها حتى إذا ما كان يومٌ أغرٌّ من أواخر أيام الدراسة من شهر نوّار، وفيما كنت أشرح لتلاميذي الأعزاء آخر درس من دروس الأدب، إذ بذلك التلميذ الذكي المشاكس الذي كان أخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن وجود ما يُعرف بالحيّة ذات الرأسين ، إذ به يضع بين يديّ وعلى مرأى من زملائه عدداً من أعداد مجلة (دنيا العالم ) الشهرية وفيها هذا الخبر كما ورد بتمامه وكماله:

الخبر:" حيّتان اثنتان لهما أربعة رؤوس، عمر أولاهما سنةٌ وعمر الأخرى ستُّ سنوات.

الصورة: إثنتان، واحدة فوتوغرافية ، والأخرى بالأشعة السينيّة.

المكان: حديقة الحيوان في سان دياغو بولاية كاليفورنيا الأمريكية.

ماذا؟ هي ذي المجلّة بين يديّ، وهي ذي الصفحة التي ورد فيها الخبر ، وهي ذي صورة تينك الحيّتين الفوتوغرافية والأخرى السينيّة الشعاعية ، فهل في ذلك شكٌّ بعدُ لمن كان ذا لبٍّ؟...

إنّها إطلالة يا سادة، مجرّد إطلالة استوحيتها مما كان علق بذاكرتي ذات يوم، من أجواء ذلك النص الذي عنوانه(الحيّة ذات الرأسين)، فما أحرانا بأن نعيد قراءته وقراءة سواه من نصوص على ضوء ما يطالعنا به العلم في كل يوم من جديد .

فأمّا أنت ، يا أرسطوطاليس، يا صاحب المنطق، أيّها المعلم الأول للفلسفة ، يا من زعمت أنّ حيّة ظهرت

في زمانك ولها رأسان، فلك من شهرتك الواسعة ما يدرأ عنك سهام الزعم أو الظنّ الذي هو ضد اليقين ...

وأمّا أنت أيّها الأعرابي، يا أعرابي الجاحظ، فلئن ظلمك الجاحظ بحكمه لمّا أن وصمك بالكذب، وأوجعك بسياط أسئلته التي تنمّ عن السخرية ، والجاحظ كما نعلم أديب ساخر بطبعه، فحسبك أنك كنت الصادق الأمين، فلم تصدع إلا بما شهدت وشاهدت إذ لم تقل شططاً، ولم تشهد زوراً، فكنت ممّن قال الله سبحانه فيهم : " ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويتخذ ما ينفق قرباتٍ عند الله وصلوات الرسول " ولم تكن من" الأعراب الذين قال تعالى فيهم أشدُّ كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله" .

وأمّا أنت يا أبا عثمان، يا الجاحظ، يا شيخ الكتّاب والأدباء، يا من غلب على أدبه العقل، فعذرك أنك غلّبت

العيان على السماع، وغلّبت الشكّ على اليقين، وإنّ لكلّ جوادٍ كبوة ، ولكل عالم هفوة...

وأمّا أنت، أيّها التلميذ الذكيّ الجسور، ولا أدري أين أنت اليوم، وفي أي ارضٍ تقيم، فلقد علّمتني، أنا الأستاذ، درساً لا كالدروس، وهو يتمثّل بأن الفطنة ليست وقفاًعلى الكبار ، بل هي قد تصدر عمّن هو

أصغر سناً منهم بكثير ..  وقديماً، وفي ليلة شديدة البرد، قصد طفل صغير أحد الفلاسفة ملتمساً لأبويه منه جذوة من نار، فسأله الفيلسوف قائلاً: وأين الوعاء الذي أضع لك فيه الجذوة  من النار ؟ فردّ الطفل قائلاً: هاك كفَّيَّ المفتوحتين ، يا فيلسوف، فضع فيهما شيئاً من رماد موقدك كيما أضع  فوق الرماد الجذوة ، فكان له ما أراد ، أمّا الفيلسوف الذي أدهشه ذكاء الطفل فقال متعجباً : "صدق الله تعالى في قوله : (وفوق كل ذي علم عليم)".